نشأة التلفزيون في العراق وتطوره

لم يكن التلفزيون معروفاً في العراق قبل عام ١٩٥٤م سوى على الصعيد النظري، إذ كانت وسائل الإعلام المحلية والخارجية تنشر، أو تذيع معلومات عن التلفزيون، ولكن البث التلفزيوني لم يكن معروفاً على صعيد الواقع لا في العراق ولا قي الشرق الأوسط. وفي عام ١٩٥٤ أقيم المعرض التجاري البريطاني في بغداد وتعرف فيه المواطنون على الجهاز الإعلامي الجديد، وبدأت رحلة التلفزيون في العراق وبالتحديد يوم ١٩٥٤/١٠/١٨ إذ نشرت الصحف المحلية إعلاناً تحت عنوان مذيعة للتلفزيون جاء فيه: تحتاج محطة التلفزيون التي ستقام في المعرض البريطاني التجاري ن قبل شركة (باي) إلى مذيعة لائقة تجيد إجادة تامة اللغة العربية أو اللغة الإنكليزية أو كلتاهما فمن تجد في نفسها الكفاءة لذلك تحضر إلى محل حسو إخوان المحدودة ــ بغداد. وقد تكرر نشر الإعلان في صحف اليوم التالي ويبدو أنَّ الشركة أرادت أن تستخدم مذيعة بدلاً من مذيع؛ لكي تستثمر إمكانية الجهاز الجديد في الرؤية لاجتذاب المشاهدين. وقبل افتتاح المعرض التجاري بيوم واحد نشرت الصحف أن الصحفيين زاروا استديو التلفزيون الذي ستبث منه المناهج خلال مدة المعرض وذكرت الأخبار أن مذيعة إنكليزية ألقت كلمة ترحيبية قصيرة شاهدها واستمع إليها الصحفيون من غرفة ملحقة بالاستديو.

ومن هذا الخبر تبين إن الإعلان عن استخدام فتاة عراقية لم يفلح في اجتذاب واحدة للعمل في تلفزيون المعرض وفي يوم ١٩٥٤/١٠/٢٥ نشرت الصحف ان الملك فيصل الثاني سيفتح المعرض التجاري البريطاني في ذلك اليوم. وفي تلك الآونة أذاعت محطة إذاعة الشرق الأدنى أن الحكومة العراقية تنوي شراء محطة التلفزيون الموجودة في المعرض التجاري البريطاني في بغداد. وذكرت المحطة انه لاينتظر تشغيل محطة تلفزيون بغداد قبل مرور ستة أشهر وانه سيوفد عدد من العراقيين إلى الخارج للتدريب على تشغيلها، وأشارت المحطة إلى أن العراق سيكون أول دولة شرقية تستعمل التلفزيون.

ويبدو ان مسالة شراء المحطة كانت مثارة بشكل رسمي فقد نشرت الصحف ان مجلس الوزراء العراقي بحث هذه القضية ولكن أعضاء المجلس ارتأوا ان الصعوبات الفنية وعدم تيسر البرامج الكافية وضيق مجالات الإرسال التلفزيوني تشكل أسباباً؛ لعدم شراء المحطة وبالذات لضيق إمكانيات الاستفادة منها. وكانت محطة التلفزيون قد عرضت للبيع بمبلغ ٦٥٠٠٠ ألف دينار وكان هذا المبلغ يقل بقليل عن ميزانية الإذاعة العراقية للسنة التي سبقت إقامة المعرض. إن رفض الحكومة شراء المحطة كان لأسباب عملية، واثر هذا الرفض قامت

الشركة فيما بعد بتقديم محطة التلفزيون هدية للحكومة العراقية. لقد ذكرت الصحف الصادرة في تلك الفترة ان محطة التلفزيون كانت قد بثت خلال أيام المعرض (وهي أسبوعان) حفلة افتتاح المعرض البريطاني وهيأت الفرص لعدد من الوزراء وبعض رؤساء الدوائر الفنية لإلقاء محاضرات عن طريقها استعرضوا فيها نشاطات وزاراتهم.

وكانت المحطة مكونة من ثلاث كاميرات وآلة سينما حجم ١٦ ملم، وقد تم نصب المحطة في دار الإذاعة العراقية، ونشـــــرت إحدى الصحف خبراً عن وصول (لاقطة التلفزيون الهوائية) التي نصبت في سارية طولها ١٤ قدماً، وأشارت إلى انه سيكون في وسع محطة التلفزيون ان تبث مناهج التلفزيون إلى مدى ٣٠ كيلومتراً من بغداد. وقد نصبت بعض أجهزة التلفزيون في مناطق ومحلات معينة في بغداد لكي تمكن الجمهور من مشاهدة البرامج إضافة إلى المواطنين اللذين يمتلكون أجهزة استقبال تلفزيوني في بيوتهم. وذكرت إحدى الصحف ان شركة باي التي جهزت معدات التلفزيون جهزت أيضاً سيارة بث خارجي (تجعل بالإمكان نقل الأحداث الوطنية التي تهم الجمهور) وذكر المدير الفني لشركة باي والذي غادر لندن إلى بغداد ليحضر حفل افتتاح التلفزيون انه قدر عدد الجمهور الذي سيشاهد حفل الافتتاح بين أربعين إلى خمسين ألف مشاهد وان العدد سيزداد كلما ازدادت أجهزة الاستقبال التلفزيوني. وقد أشيع عن محطة تلفزيون بغداد آنذاك أنها ستكون أول محطة في العالم تكون أغلبية برامجها لتثقيف الأطفال والبالغين وإنها ستسبق كثيراً مثيلاتها في بريطانيا ولا مثيل لها في أي بلد آخر في العالم.

وقد افتتحت محطة التلفزيون رسمياً يوم ١٩٥٦/٥/٢ وكانت أول مذيعة للتلفزيون في العراق هي (صبيحة المدرس) وفي حفل الافتتاح ألقى مدير التوجيه والإذاعة العام كلمة ذكر فيها ان ثلاثة من المهندسين العراقيين الذين أكملوا دراستهم الجامعية في بريطانية وتدربوا فيها على التلفزيون هم الذين يشرفون على محطة التلفزيون، كما ان احد عشر طالباً تم اختيارهم من مدرسة الصناعة وأكملوا تدريبهم في التلفزيون أصبحوا قادرين على القيام بأعمالهم الفنية وان عدداً آخر من الطلاب سيتم اختيارهم في العام القادم. وقد قام الملك فيصل الثاني بافتتاح المحطة مزيحاً الستار عن مدخلها ثم قام بتفقد المحطة وبعد ذلك ألقى كلمة وأعلن ان عدد أجهزة التلفزيون التي بيعت حتى افتتاح محطة التلفزيون كان ١٢٠ جهازاً. وكانت الحكومة الأمريكية تقدم معونة فنية للمحطة بالإضافة إلى قيامها بإعارة احد الخبراء الأمريكان وهو (فانس هيلك) الذي يمتلك خبرة في أعمال التلفزيون ليقوم بتنظيم البرامج بالرغم من ان التمويل كان يتم من الحكومة العراقية.

لقد كان ارتفاع أول سارية للبث ٥٠ قدماً ثم استبدلت بسارية ارتفاعها ١٣٠ قدماً، وفي عام ١٩٥٩ استعيض عنها بسارية ارتفاعها ٢٩٠ قدماً وأصبحت في عام ١٩٧٠، ٥٦٠ قدماً وفي عام ١٩٧٦ أصبح ارتفاعها ١٠٠٠ قدم. ونظراً للإمكانيات المحدودة للتلفزيون في مجالات الملاكات والتمويل والتقنية في العراق في سنواته الأولى، فان تطوره ظل بطيئاً وكانت المؤثرات والمتغيرات السياسية تلعب دورها في هذا المجال. وعلى الرغم من الإمكانيات المحدودة للتلفزيون إلا أن الحكومة كانت تدرك قوته التأثيرية فحاولت منذ بدايات تأسيس التلفزيون ان تستفيد منه في التأثير على الجمهور وقد اقترحت لجنة الترفيه والتسلية في وزارة

العمل والشؤون الاجتماعية ان توفر محلات منتظمة للعرض التلفزيوني طيلة أيام السنة واقترحت الاستفادة من بعض الحدائق والساحات العامة التابعة لأمانة العاصمة والتي اقترحت عليها أيضاً ان تقوم بتهيئة أماكن الجلوس وبناء مظلات خاصة لتقي الجمهور من الأمطار والبرد في الشتاء وارتأت أن تقوم مديرية التوجيه والإذاعة العامة بأعداد أفلام ومناهج خاصة للتسلية وتوجيه الجمهور وتثقيفه كما قامت لجنة التسلية والترفيه الاجتماعية بتقديم مقترح للاستفادة من أجهزة التلفزيون التي وزعتها وزارة المعارف على مدارسها لاستعمالها في الأماكن المقترحة، نظراً لعدم الاستفادة من هذه الأجهزة في المدارس لان التلفزيون يعرض برامجه في الاماسي في حين يكون دوام الطلاب في الصباح وبذلك لم تتم الاستفادة من تلك الأجهزة. وواضح ان الهدف من سعي لجنة التسلية والترفيه هو استقطاب الجمهور والشباب خاصة وتوجيههم عبر برامج التلفزيون الوجهة التي تنسجم مع سياسات الحكومة . وقد أصبح التلفزيون بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ إحدى أدوات الدولة السياسية ذات الأهمية الخاصة فكانت قناة جوهرية للاتصال بالجمهور. وقد وصف احد الكتاب طريقة استخدام التلفزيون سياسياً في تلك الفترة عندما راح يبث محاكمات المحكمة العسكرية العليا الخاصة والتي أطلق عليها اسم (محكمة الشعب) أو كما يسميها الجمهور محكمة المهداوي، وصارت محكمة المهداوي جزءً من حياة الشعب العراقي ومنهجاً دائماً في مناهج الإذاعة والتلفزيون، وهكذا نزل المهداوي إلى الميدان لا بلسانه وحنجرته فحسب، بل كذلك بوسائل دولة كاملة سخرت له كل أسباب دعايتها ونشرها. وهكذا كان التركيز على استخدام التلفزيون بحيث طغى عليه التوظيف السياسي وجعله يأخذ حيزاً مهماً في اهتمامات الحكومة كقناة لعلاقتها بالشعب ومحاولة التأثير في الرأي العام باتجاه شرح وقبول مواقفها السياسية وقد صار الاهتمام بالتلفزيون جزءاً أساسياً في اهتمام الدولة بأجهزة الإعلام ككل، وكان التلفزيون عام ١٩٦٠ مديرية ضمن مديرية عامة تسمى (مديرية الإذاعة والتلفزيون العامة) تابعة إلى وزارة الإرشاد ويتولى أعمالها مدير عام يحمل شهادة عالية ترتبط به المديريات الآتية: (مديرية الإذاعة، ومديرية التلفزيون، ومديرية الشؤون الهندسية والفنية) . ومن المفارقات الجديرة بالتسجيل أن زعيم هذه المرحلة وهو عبد الكريم قاسم قد قضى حتفه في أستوديو محطة تلفزيون بغداد، وشاهد الجمهور نهايته من خلال صور عرضت على الشاشة. واستمرت التحسينات على محطة تلفزيون بغداد وبرامجه بعد عام ١٩٦٣ وان جرت ببطء يتناسب مع طبيعة التطور ككل ولقلة التخصيصات المالية. وقد تم إدخال أول جهاز فديوتيب إلى التلفزيون العراقي عام ١٩٦٤ وفي عام ١٩٦٧ كان البث التلفزيوني لمحطة بغداد يغطي مركز بغداد في منطقة نصف قطرها الكبير ١٠٠ كم شمالاً وجنوباً ونصف قطرها الصغير ٦٠ كم شرقاً وغرباً. وكانت محطة بغداد تستخدم قناة واحدة للبث وهي قناة رقم ٨، وكان عدد ساعات الإرسال بمعدل سبع ساعات يومياً .

وشهدت الفترة التي أعقبت عام ١٩٦٨ اهتماماً متزايداً بالتلفزيون من قبل الدولة، سواء من الناحية الإدارية أو التقنية أو المالية فقد صدر قانون المؤسسة العامة للإذاعة والتلفزيون في عام ١٩٧٠، وبذلك تحققت لها إمكانيات العمل والتصرف بمرونة وقدرة اكبر في إصدار القرارات، كما تضمنت خطة التنمية للأعوام ١٩٧٠ــ ١٩٧٤ زيادة في التخصيصات المالية لتحسين البث التلفزيوني في بغداد وبقية المحافظات. وجرى العمل على افتتاح قناة ثانية للبث

التلفزيوني، وصار بإمكان الجمهور ان يشاهد البرامج على قناتين، بدلاً من قناة واحدة كما كان في السابق، واستمر العمل على تطوير المحطة من حيث الملاكات والتقنية.

وقد شهدت التقنية التلفزيونية تطوراً أسرع من تطور بناء الكادر في سنوات الثورة الأولى، وقد كان التلفزيون يتألف من الأقسام الآتية :

١. قسم البرامج الإخبارية والسياسية: وهذا القسم يقوم بتهيئة البرامج السياسية والإعلامية اليومية وفي المناسبات الخاصة.
٢. قسم البرامج الثقافية والموجهة: ويقوم بالإشراف على البرامج العلمية والأدبية والفنية والثقافية والرياضية وبرامج المرأة والأطفال والعمال والفلاحين وكذلك على جميع الندوات التي تعرض في التلفزيون.
٣. قسم التمثيليات: ويقوم بإعداد وإنتاج التمثيليات والمسلسلات والمسرحيات.
٤. قسم المنوعات: ويقوم بإعداد البرامج الترفيهية المنوعة مثل التمثيليات والمسلسلات الغنائية والأغاني والاوبريتات وبرامج الإلغاز والموسيقى والإشراف على الحفلات الشهرية وحفلات المناسبات الوطنية والأعياد.
٥. قسم الأفلام والتصوير السينمائي: ويعد الأفلام التمثيلية والوثائقية والتعليمية والأفلام الإخبارية والصور المتحركة.
٦. قسم الأخبار: ويقوم بإعداد نشرات الأخبار إعداداً تلفزيونياً.
٧. قسم الاستوديوهات والديكور: ويقوم بإعداد الديكور وتهيئة قطع الإكسسوار والأثاث ومواد المكياج.
٨. قسم التنسيق والمتابعة: ويعد الدورات الشهرية لبرامج التلفزيون لبغداد والمحافظات والإشراف على تنفيذ البرامج اليومي لتلفزيون بغداد وتغطية النواقص فيه وإيصال البرامج إلى محطات التلفزيون في المحافظات والإشراف عليها أسبوعياً.
٩. قسم التبادل والتنسيق والإعلان التجاري: ويقوم بفحص الإعلانات التجارية لمعرفة مدى صلاحيتها للعرض.
١٠. قسم الأفلام الإخبارية والوثائقية: ويقوم بترجمة الأفلام الإخبارية الأجنبية التي ترد إلى المؤسسة لعرضها وتجهيز بعض برامج التلفزيون للأفلام التي تحتاجها كالأفلام العلمية والرياضية.
١١. مكتبة الأفلام: وتضم الأفلام التي تمتلكها المؤسسة والأفلام المؤجرة.
١٢. قسم الإدارة: ويقوم بتنظيم الأمور الإدارية التي تخص التلفزيون.

وفي عام ١٩٧٣ تقلصت فترة البث على القناتين العاملتين في محطة تلفزيون بغداد اعتباراً من ١٩٧٣/١١/١٠ ويعود سبب التقليص لتمكين المواطنين من التمتع بقسط من الراحة استعداداً للعمل بنشاط في اليوم التالي. وفي عام ١٩٧٦ ابتدأ البث الملون من تلفزيون بغداد بعد إن كان البث في السنوات السابقة يتم باللونين الأبيض والأسود. وكانت برامج الأطفال هي أول المواد التي قدت بالألوان ومدتها ٤٥ دقيقة يومياً. وصار التلفزيون يزيد من فترة البث الملون تدريجياً إلى أن أصبح يشكل جميع البرامج والفقرات وقد اقتضى هذا التغيير تحوير

الاستوديوهات والآلات واستبدال بعضها وبذلك يكون التلفزيون العراقي قد انتقل إلى مرحلة تقنية جديدة .

المصدر : أ.م.د سعد سلمان المشهداني : تاريخ وسائل الاعلام في العراق ، ط ٢ ، عمان ، دار أسامة للنشر والتوزيع ، ٢٠١٤ .